القرآن جِلاء القلوب

المغبون كل الغبن من قعد عن القرآن، ولم ينهض به شرفاً، ولم ينل منه أجراً، ولم يصب فيه فهماً؛ فليس شيء أنفع للإنسان من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معانيه؛ فإنه يُطْلع العبد على أسرار السعادة، ويكسبه أسباب السيادة.

ومهما رأيت من مفاخرَ تأخذ بالألباب، ونياشينَ تذهب بالأبصار، فإنْ لم يَرِدْ أصحابها على القرآن، وينهلوا من معينه؛ فإن ظمأً بالغاً لا يكاد يفارقهم، ونقصاً بيناً لا يزال يُساورهم، وإن تسربلوا في المفاخر، وتغنَّوا بالأمجاد.

وإذا رأيت من بعض قراء القرآن همماً حقيرة، وعقولاً خاملة؛ فلأنهم لم يتدبروا آياته، ولم يتفقهوا حِكَمه وعظاته؛ فالقرآن «كلما ازدادت البصائر فيه تأملاً وتفكيراً، زادها هداية وتبصيراً، وكلما بجَست معينه، فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيراً»[(١)].

وقد قال الصحابي المقرئ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧).

أراد العلم فَلْيُثَوِّر القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين»[١].

ومعنى: «**فَلْيُثَوِّرالقرآن**»؛ أي: لِيُنَقِّرْ عنه، ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته[٢].

ونحن في زمن شاعت فيه شبه الباطل، وتزينت فيه الفتن، وتزخرفت فيه الضلالة بصورة لم تكن من قبل، فأصيب من جرَّاء ذلك بعضُ المسلمين بمقتل؛ فالتبس عليهم طريق الحق، واستحوذت عليهم الحيرة، وتلجلجت عليهم الشُّبه، فصاروا ينادون بلسان الحال: أين الطريق؟

وإن الشفاء كلَّ الشفاء، والرِّواء كلَّ الرِّواء أن يقبل هؤلاء على تدبر كلام الله، والتفكر فيه؛ فلن يجدوا مخرجاً من الحيرة، ولا مناصاً من الوحشة، ولا فرجاً من الضيق الجاثم في صدورهم إلا في تدبر كتاب الله.

«فمن تدبر القرآن تبين له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج»[٣].

وهذه قصةٌ كتبها وعايش أحداثها معالي الشيخ عبد الله المنيع[٤] ـ وفقه الله ـ عن رجل منحرف الفكر، اهتدى لما أقبل على القرآن، يقول معالي الشيخ: «كنت في جلسة مع أحد

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٦).
(٢) النهاية، لابن الأثير (١/ ٢٢٩).
(٣) فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٩٤).
(٤) جريدة الرياض عددها (١٥٤١٥) بتاريخ ٢٨/ ٩/ ١٤٣١هـ.

إخواننا ذوي الشفافية في التدين ـ عَلماني ـ وقد جرى الحديث معه حول الحياة الدنيا، وأن الحياة محدودة ومتبوعة بحياة أبدية الناس فيها فريقان، فريق في الجنة وفريق في السعير، خالدين في الحالين إلا من شاء الله».

يقول الشيخ عبد الله: «فذكر أن ما قلته له محل نظر، وليس لديه ما يؤكد هذا القول، ولكنه يرى أن الإنسان يجب عليه أن يحترم أخاه الإنسان، وأن يعيش معه تعايشاً سلميّاً بغض النظر عن ديانته».

ثم قال الشيخ عبد الله: «واشتد عليَّ هذا الأخ، ووصفني بالرجعية والتأخر عن إدراك معنى الحياة والوجود، ولكنني استعرت قول رسول الله ﷺ حينما قال: «**اللَّهُمَّ اهد قومي فإنهم لا يعلمون**»[1]. وقلت: اللَّهُمَّ اهد أخي؛ فإنه لا يعلم.

وقلت له: يا أخي هذا شيك بعشرة آلاف ريال في مقابل أن تقرأ كتاب الله مرة واحدة بتأمل وتدبر، كأنه رسالة مرسلة إليك من عزيزٍ عليك، وأن تعاهدني على ذلك، وأن تحدد لي معك جلسة أخرى بعد انتهائك من القراءة، فأخذ الشيك وأعطاني عهداً ألا يصرفه إلا بعد القراءة».

(١) بهذا اللفظ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣٧٥) وقال عقبه: «هذا مرسل»، والمشهور بلفظ: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون» أخرجه البخاري (٦٩٢٩)، ومسلم (١٧٩٢).

فماذا صار بعد؟!

يقول الشيخ عبد الله: «وبعد أسبوع اتصل بي وطلب تحديد وقت للجلسة الثانية، حيث أتم قراءة القرآن، وعند الاجتماع به أعاد لي الشيك حيث لم يصرفه، وأعطاني شيكاً بعشرين ألف ريال، وقال: أما شيكك فقد كان له أثر كبير في إخراجي من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الحقيقة واليقين، وأسأل الله أن يجزيك عني خير ما جازى به داعياً إلى ربه، فقد قرأت كتاب الله وفاءً بالعهد، فوجدت فيه من العظة والعِبر، وأسباب حياة القلب ما قادني إلى الأمل من الله أن أكون بعد الموت من فريق الجنة، وأما الشيك الآخر المسحوب مني لك فهو جزاء إنقاذك إياي من ظلمات الشك والحيرة إلى أنوار اليقين. فقلت: يا أخي ما رأيك أن نتبرع بالشيكين لصالح جمعية تحفيظ القرآن شكراً لله على هذه النتيجة المباركة».

يقول الشيخ عبد الله: «ثم قال هذا الرجل: يا أخي والله ثم والله ما كان مني ومن إخواني العَلمانيين من الشك والريب إلا نتيجة الجهل والكِبر والتكبُّر على الاتجاه إلى أسباب الهداية والرشاد، فوالله ـ وأنا اليوم أعرف من أحلف به ـ ما جعلنا بهذا المسلك الأثيم من الشك والحيرة والارتياب ـ بل قد يصل الأمر إلى الكفر بالله ـ إلا جهلنا بكتاب الله، وبُعدنا عن الأخذ بحبله المتين، وصراطه المستقيم».

فانظر في كلام هذا الرجل، وأنه لما أقبل بصدق على كلام الله طالباً الهدى منه تبين له طريق الحق؛ وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [الشورى: ١٣] علّق على الآية العلامة السعدي فقال: «حُسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها»(١).

ثم تصريح هذا الرجل بأن الذي كان يمنعه من الهداية سابقاً هو الجهل والكبر والتكبر؛ وهذه حقيقة يقينية أن من كابر طريق الحق، وسلك مسالك الشك، فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر، حتى لو قرأ القرآن، ورأى كل آية، وسمع كل حجة، ولامس كل حقيقة؛ فإنها لا تزيده إلا ضلالاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [الأنعام: ٧]، وقال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ۝٦٠﴾ [الإسراء: ٦٠]، وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة على الآية الأخيرة: «أنزع عنهم فهم القرآن، فأصرفهم عن آياتي»(٢).

وزاد هذا المعنى بسطةً أحمد بن عبد الرحمٰن بن قدامة،

(١) تفسير السعدي (ص٧٥٤).
(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧).

فقد عدَّد موانع فهم القرآن، فقال: «ومن ذلك أن يكون التالي مصرّاً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلًى بهوى مطاع؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فهو كالجرَب[(١)] على المرآة، يمنع من تجلِّي الحق؛ فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل الجِلاء للمرآة»[(٢)].

فإلى كل من اعترته الريبة في دينه، وطاوله الشك في عقيدته، حتى كاد صدره يتميز من الحيرة أقبل على القرآن، قاصداً طريق الحق، باحثاً عن الهدى، فثَمَّ هداية السالك، وأمن الخائف، وثَمَّ راحة البال، وهَناءة القلب، وثَمَّ ارتواء الغليل، وشفاء العليل.

(١) أي: كالصدأ. ينظر: لسان العرب (١/ ٧٦٧).
(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٦١).